تاريخ حبيب السيَّر في أخبار أفراد البشر(دراسة وتحليل)

بقلم الأُستاذ جلال الدين همائي

ترجمة

أ.م. د. عماد الدين عبد الرزاق العباسي

كلية العلوم الإسلامية- جامعة بغداد

المستخلص

يعد كتاب تاريخ حبيب السير في اخبار افراد البشر من كتب التاريخ العام ، وهو في نفس الوقت يعد أهم الكتب التاريخية التي أُلفت باللغة الفارسية بعد عهد المغول ، ويعد مؤلفه غياث الدين بن همام الدين الحسيني والمعروف بخواند مير من كبار مؤرخي وكُتاب وأُدباء ايران في القرن العاشر الهجري ، وابتدأ بتأليفه سنة ٩٢٧هـ وأتمه سنة ٩٣٠ ، وقد ألفه باسم غياث الدين امير محمد بن الامير يوسف الحسيني ، وهو من أكابر نقباء سادات وقضاة ووجهاء هراة . وأثبت خواند مير فيه الوقائع التاريخية من ابتداء تاريخ البشر حتى وفاة الشاه اسماعيل الصفوي أي سنة ٩٣٠هـ ، وهذا الكتاب يعد أصغر حجماً نسبة إلى كتاب روضة الصفا ، وهو في ثلاثة مجلدات ، ويضم كل مجلد أربعة أقسام تغطي فترات مختلفة من التاريخ سبقتها مقدمة في ذكر أول المخلوقات ، ويروي المجلد الأول منها تاريخ ما قبل الإسلام وظهور الإسلام وأحوال الخلفاء الراشدين ، والمجلد الثاني في فضائل الأئمة الأطهار وحكام بني أُمية والخلفاء العباسيين وطبقات السلاطين الذين كانوا معاصرين للعهدين الأموي والعباسي ، واشتمل المجلد الثالث على ذكر السلاطين والحكام بعد الخلفاء العباسيين وبضمنهم سلاسل المغول والتيموريين وغيرهم إلى أوائل عهد الصفوية وأيام الشاه إسماعيل وحتى شهر ربيع الأول من سنة ٩٣٠هـ . وما ميَّز كتاب حبيب السير أنه كان يُفرد في نهاية كل عصر فصلاً عن العلماء والنقباء والسادات والأفاضل والأُدباء والشعراء وأهل الفنون في ذلك العصر . ويمكن عده أهم كتاب تاريخي باللغة الفارسية بعد عهد المغول وحتى عهدنا الحاضر بعد كتاب روضة الصفا . ومن الخصائص التي اختص بها صاحب كتاب حبيب السير معاصرته للأحداث مدة سبعة وخمسين عاماً بعد تاريخ الانتهاء من تأليف كتاب روضة الصفا ، وهذا ما ميزه ، وهي الفترة من ٨٧٣-٩٣٠هـ التي عاصرها المؤلف ، وهذا الجزء من الكتاب بالذات يعد من الناحية التاريخية معتبراً وأكبر قدراً من الأقسام الأُولى للكتاب وأكثر حداثة وفائدة . وقد أصبح حبيب السير منذ تأليفه وحتى اليوم قبلة لاهتمام ومراجعة العلماء الكبار ومن لهم علاقة بالتاريخ ، وتروي النسخ الخطية الكثيرة الموجودة منه أهمية هذا الكتاب لدى العلماء وأهل الأدب . وقد اعتمد خواند مير في تحريره لموسوعته التاريخية هذه على كم كبير ومتنوع من المصادر التي أشار إليها توثيقاً وتأكيداً وترصيناً لما أورده ، وتنوعت هذه المصادر بين مؤلفات تاريخية وكتب حديث وطبقات ودواوين أشعار . ولأهمية هذه الموسوعة التاريخية فقد ارتأيت أن أُترجم الدراسة التي أثبتها الأُستاذ جلال الدين همائي مقدمة للكتاب لتعريف المهتمين بالدراسات التاريخية بهذا المرجع المهم . المترجم

الكلمات المفتاحية: حبيب السير ، خواند مير ، روضة الصفا ، مير خواند .

History of Habeeb Al-Siar

Assist. Prof Dr. Imad Aldeen A. Al-Abassi
Baghdad University -College of Islamic Sciences
imad.alabassi@gmail.com

Abstract

The history of Habeeb al-Siar is a history book, and at the same time is the most important historical book written in Persian after the Mongol era. The author is Ghayath al-Din bin Hammam al-Din al-Husseini, known as Khawand Mir, one of the greatest historians, authors and writers of Iran in the tenth century AH, and began to write in 927 AH and completed in 930. The historical facts from the beginning of human history to the death of Shah Ismail al-Safawi, 930 AH . This book is in three volumes, each folder comprises four sections covering different periods of history, At the beginning of the book the introduction of the first creatures , The first volume is the history of pre-Islam, the emergence of Islam and the conditions of the Righteous Caliphs , And the second volume in the virtues of the imams of the pure and the rulers of the Umayyad and Abbasid Caliphs and classes of sultans who were contemporaries of the Umayyad and Abbasid ages , The third volume included the mention of sultans and rulers after the Abbasid caliphs, including the chains of the Mongols, the Timorese and others until the early era of Safavid and the days of the Shah Ismail until 930 AH . And for the importance of this historical encyclopedia, I thought that I translate the study, which was proven by Professor Jalaluddin Humaei as a preface to the book to acquaint those interested in historical studies with this important book .

Keywords: History, Khawand Mir, Rawdat Al_Safa, Mir Khawand.

تاريخ حبيب السير في أخبار أفراد البشر
تأليف غياث الدين بن همام الدين الحسيني
المعروف بخواند امير

دراسة بقلم الاستاذ العلامة جلال الدين همائي *

خواند مير مؤلف تاريخ حبيب السير:

هو الخواجة غياث الدين بن الخواجه همام الدين محمد بن الخواجة جلال الدين بن برهان الدين محمد شيرازي المعروف بـ (خواند مير) من الأدباء والمؤرخين المشهورين في القرن العاشر الهجري وهو مؤلف كتاب حبيب السير وعدة كتب أخرى .

مؤلفات خواند مير:

بلا شك فإن أهم مؤلفاته هو كتاب (حبيب السير) ، وقد شرع بتدوينه سنة ٩٢٧هـ وأتمه سنة ٩٣٠هـ على عهد حكومة إسماعيل شاه الصفوي .

ويعد كتاب حبيب السير أهم كتاب تاريخ أُلفَ باللغة الفارسية بعد عهد المغول وحتى وقتنا الحاضر بعد كتاب روضة الصفا . ويصرح المؤلف في مقدمة كتابه بتاريخ شروعه بالتأليف وبتاريخ الانتهاء منه في الخاتمة ، وفي مواضع أخرى بين ثنايا الكتاب ، وخصوصا في الجزء الرابع من المجلد الثالث. وفي مقدمة كتابه يشير إلى ستة من مؤلفاته التي ألفها قبل سنة ٩٢٧هـ ، وهي:

١. كتاب دستور الوزراء بالفارسية ويشتمل على أسماء وزراء وسلاطين وملوك إيران المشهورين ، وقد ألفه باسم السلطان حسين بايقرا وأحد أكابر دولته كمال الدين محمود في سنة ٩٠٦هـ ، ثم أعاد النظر فيه سنة ٩١٤هـ ، وهو مطبوع .

٢. كتاب مآثر الملوك بالفارسية ، ويشتمل على أحاديث الملوك ، وقد ألفه باسم الأمير عليشير نوائي في حدود سنة ٩٠٦هـ .

٣. خلاصة الأخبار وقد شرع به باسم عليشير نوائي في سنة ٩٠٤هـ وأتمه سنة ٩٠٥هـ ، وهو بمثابة موجز لكتاب روضة الصفا لمير خواند .

٤. أخبار الأخيار .

٥. منتخب تاريخ وصاف .

٦. مكارم الأخلاق .

ومن جملة كتبه التي ألفها بعد حبيب السير كتاب همايون نامه والذي ألفه باسم همايون شاه ابن بابرشاه الدهلي بعد سنة ٩٣٧هـ .

وقد كان كتاب حبيب السير دوماً ومنذ الانتهاء من تأليفه وحتى الآن قبلة لاهتمام ومراجعة كبار العلماء ومن لهم علاقة بالتاريخ ، وتروي نسخه الخطية الموجودة والتي لا حصر لها أهمية هذا الكتاب لدى العلماء وأهل الأدب .

أجزاء ومجلدات حبيب السير:

يشتمل الكتاب على مقدمة بعنوان افتتاح ، وخاتمة بعنوان اختتام ، وله ثلاثة مجلدات ، ويقسم كل مجلد إلى أربعة أقسام ، وبقول المؤلف فهي جمعاً ١٢ عقداً تنتظم كل أربعة منها في دُرج .

المقدمة أو الافتتاح: في ذكر أول المخلوقات .

الخاتمة أو الاختتام: في عجائب الربع المسكون وهي بمثابة القسم الجغرافي وكتاب المسالك والممالك .

المجلد الأول:

في تاريخ ما قبل الإسلام وحتى ظهور الإسلام وأحوال الخلفاء الراشدين وهو في أربعة أقسام:

١. الأنبياء والحكماء .

٢. ملوك العرب والعجم والقياصرة القدماء .

٣. ظهور خاتم الأنبياء .

٤. الخلفاء الراشدين .

المجلد الثاني:

في ذكر مناقب الأئمة الاثني عشر ، وحكام بني أمية ، وبني العباس ، والسلاطين المعاصرين لهم في أربعة أجزاء أو أربعة أقسام:

١. فضائل الأئمة الأطهار .
٢. حكام بني أمية .
٣. الخلفاء العباسيون .
٤. طبقات السلاطين الذين كانوا معاصرين للعهدين الأموي والعباسي .

المجلد الثالث:

ويشمل السلاطين والحكام بعد الخلفاء العباسيين وبضمنهم سلاسل المغول والتيموريين وغيرهم حتى أوائل عهد الصفوية ويقع في أربعة أجزاء:

١. حكومة المغول من جنكيز وأعقابه .
٢. طبقات السلاطين المعاصرين للعصر المغولي مثل: أتابك فارس ولرستان وغيرهم .
٣. عهد التيموريين وأخلافهم والسلاطين المعاصرين لتلك الفترة وحتى ظهور الدولة الصفوية .
٤. ظهور الدولة الصفوية والحديث عن أيام الشاه إسماعيل وحتى شهر ربيع الأول من سنة ٩٣٠هـ .

قصة تأليف الكتاب ووجه تسميته بحبيب السير:

يستفاد مما جاء في مقدمة الكتاب وفي ثنايا مواضيعه التي أثبتها المؤلف أنه شرع بتأليفه في أوائل سنة ٩٢٧ هجرية والموافقة لسنة ١٥٢١ الميلادية لغياث الدين أمير محمد بن الأمير يوسف الحسيني وهو من أكابر نقباء السادات وقضاة ووجهاء هراة ، وكان قد كتب مقدمة الكتاب وقسماً من الجزء الأول من المجلد الأول ثم اضطربت أوضاع هراة وقتل مير غياث الدين عن عمر ناهز ٥٦ عاماً في يوم الأربعاء السابع من شهر رجب من السنة نفسها ٩٢٧هـ على يد أعداء محليين على رأسهم أمير خان حاكم هراة ، ولهذا السبب فقد توقف تأليف الكتاب لعدة أشهر .

وبعد مقتل محمد خان شيباني سنة ٩١٦هـ وسيطرة شاه إسماعيل الصفوي على هذه النواحي مالت أوضاع هراة نحو الاستقرار والأمن ، وعندها نهض خواند مير إلى تأليف كتابه . وفي سنة ٩٢٧هـ قاد عبيد الله خان أوزبك جيشاً للسيطرة على هرات ، فقام بمحاصرتها وهذا ما أدى إلى أن تؤول أحوال هراة للأضطراب وعدم الاستقرار.

مير غياث الدين محمد حسيني الذي شُرع بتأليف حبيب السير له:

كما ورد في حبيب السير مفصلاً فإن مير غياث الدين من السادة الحسينيين الذين تتصل سلسلة نسبهم بالحسين الأصغر إبن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام ، ولكفاءته وإستحقاقه وكياسته فقد تمت ترقيته إلى مقام القضاء والصدارة فانتظمت شؤون خراسان وخاصة هراة بقبضة تدبيره وكفاءته .

وخلال حصار هراة على يد عبيد الله خان أزبك ؛ قدم مير غياث الدين خدمات جليلة لأهالي هراة ، وكان لتدابيره الكفوءة فائدة كبيرة في منع سيطرة الأزبك على المدينة ، ولكن وبعد دفع هذه الغائلة فقد قُتل على أيدي أعداء من الداخل .

وقد أشاد خواند مير به كثيراً وأطنب في مدحه وذكر شمائله وأورد حادثة مقتله بالتفصيل وذكر بعض المراثي الشعرية التي قيلت بحقه .

إتمام حبيب السير باسم الخواجة حبيب الله وزير دورميش خان :

لقد تأخر تأليف كتاب حبيب السير بسبب مقتل غياث الدين والحوادث الكبيرة التي أحاطت بهراة وعلى رأسها محاصرة عبيد الله أزبك لها ؛ ثم عادت أحوال هراة وتحسنت مجدداً نتيجة لاهتمام الشاه إسماعيل وحكومة دورميش ووزارة كريم الدين خواجة حبيب الله ساوجي .

وفي شهر صفر من سنة ٩٢٨ توجه الخواجة حبيب الله إلى هراة وجمع العلماء والسادات والوجهاء وقرأ على الناس أمر الشاه إسماعيل القاضي بتفويض شؤون نواحي خراسان إلى دورميش خان مع منحه كامل السلطات في عزل وتنصيب الحكام ، فآلت الأوضاع إلى الاستقرار والطمأنينة وزالت مظاهر الهرج والمرج وفقدان الأمن ، وعندها عاد خواند مير إلى قلمه واستمر في إتمام كتابه .

وقد كرر خواند مير في ثنايا كتابه ذكر الخواجة حبيب الله وأثنى على رأفته وتدبيره وسياسته نظماً ونثراً .

المادة التاريخية لسنة الانتهاء من تأليف حبيب السير:

إضافة إلى المواضع العديدة التي جاءت في خاتمة وثنايا القسم الرابع والتي تصرح بتاريخ الفراغ من تأليف الكتاب في سنة ٩٣٠هـ ، وكذلك في نهاية القسم الخاص بخاتمة الكتاب والذي جاء تحت عنوان (بدائع وغرائب الربع المسكون وعجائب وقائع العالم المختلفة والمواضيع المتعلقة بالمسالك والممالك وعجائب البر والبحر) صنع المؤلف نفسه مادتين تاريخيتين تؤرخ لتأليف كتابه:

الأولى: الجملة العربية "آثار الملوك والأنبياء" والتي تقابل بحساب الجمل العدد ٩٣٠ بدون عد همزة المد في آخر (الأنبياء) .

الثانية: الجملة الفارسية "خبر از جهانيان" والتي أوردها نظماً .

بحث نقدي حول حبيب السير:

إن شرح جميع الخصائص والمميزات والنقود الأدبية والتاريخية لكتاب حبيب السير مع ذكر الشواهد والأمثال ليس موضوعاً لمقالة بل يحتاج إلى رسالة خاصة ومنفصلة والى وقت ومجال واسع حتى لا يقع المنشىء في حرج ضيق الوقت في تأليف هذه المقدمة المختصرة ولا تأخذه العُجالة ، ومع ذلك فقد تم الحديث عن تلك الموضوعات ولم نترك مقدمة الكتاب تخلو من ذلك المطلب المهم بشكل كلي ، وسنورد بعض الجمل التي تُفهرس للكتاب .

١- موسوعية الكتاب:

يعد كتاب حبيب السير من حيث الشمولية وتنوع الموضوعات التاريخية الفارسية كتاباً لا نظير له ولا مثيل بعد كتاب روضة الصفا لمير خواند ، وكذلك الكتاب الأشمل الذي تم تأليفه في هذا المجال لحد الآن ، ولحسن الحظ فأن نسخته الكاملة نجت من حوادث الدهر وأصبحت بمتناول المجتهدين في طلب الفائدة .

لقد أورد صاحب كتاب حبيب السير في كتابه جميع القصص والحكايات والأساطير المتعلقة بعصور ما قبل الإسلام وجميع الموضوعات التاريخية لعصور ما بعد الإسلام حتى زمانه المعاصر لعهد حكم السلطان حسين بايقرا والشاه إسماعيل الأول الصفوي ، وبهذا فقد قدم خدمة جليلة للتاريخ والآداب الإيرانية .

٢- تقسيم حبيب السير إلى قسمين متميزين:

يمكن تقسيم محتويات الكتاب إلى قسمين رئيسيين:

القسم الأول: ويبدأ منذ بداية خلق العالم حتى ظهور الخاتم صلوات الله عليه ، أي من بداية الكتاب حتى نهاية الجزء الثاني من المجلد الأول متضمناً قصة تكوين العالم وخلق السماء والأرض وبيان أول المخلوقات وكيفية خلق آدم وحواء وظهور بني آدم وقصص الأنبياء والحكماء السالفين من قبيل قصة طوفان نوح والنمرود وشداد وأحداث روضة ذات العماد وواقعة إبراهيم وإسماعيل وأنبياء بني إسرائيل وقصة يوسف وفرعون مصر وموسى والخضر وأحوال لقمان وفيثاغورس وافلاطون وسقراط وأرسطو وأمثالهم ، وتاريخ ملوك إيران القدماء من البيشداديين والكيانيين والاشكانيين والساسانيين وملوك العرب وغيرهم .

القسم الثاني: ويبدأ منذ ظهور الإسلام وحتى أوائل عهد الصفوية ، أي من بداية الجزء الثالث من المجلد الأول حتى آخر الجزء الرابع من المجلد الثالث ويشمل وقائع أيام الرسول الأكرم (ص) والخلفاء الراشدين والأئمة الأطهار والدولة الأموية والخلفاء العباسيين وسائر طبقات السلاطين والملوك المسلمين وحتى سنة ٩٣٠هـ ، أي أواخر عهد الشاه إسماعيل مؤسس المملكة الصفوية .

٣- القسم الأول لحبيب السير منذ بداية الخلق وحتى ظهور الإسلام:

إن أكثر روايات القسم الأول من كتاب حبيب السير من نوع الأساطير والقصص القومية والدينية التي تنتشر بين جميع أمم وشعوب العالم قليلاً أو كثيراً ، وجميع محتويات الكتاب في هذا القسم هي تكرار لمواضيع وردت في كتب التاريخ والقصص الأقدم من حبيب السير وخصوصاً روضة الصفا الذي كان المرجع الأكبر والنموذج للمؤلف خواند مير ، وقد نقل جميع الروايات والحكايات بتصرف بالعبارات وأحياناً بدون تصرف ، وفيما عدا استخدامه لفنون الإنشاء والكتابة فإنه لم يُزد على ما سطره الأقدمون .

نفس هذه الموضوعات كان قد تقبَّلها أسلافنا في القرون الخوالي وعدوها جزءاً من الحقائق التاريخية المسلم بها ، وكانوا ينقلونها ويروونها من لسان إلى لسان ومن كتاب إلى كتاب على أنها أحداثاً و مسائل مسَّلمة ، ولم تكن صحة هذه المسائل وخصوصاً الروايات التي لها علاقة بأي صورة من الصور بالعقائد والكتب الدينية مثل التوراة والقرآن المجيد بحاجة إلى تحقيق واحتجاج فإنها لم تكن قابلة للإنكار والشك .

إن الدليل القاطع والحجة البالغة لديهم في تصديق ونقل هذهِ المسائل هي الروايات التي وردت في كتب سير الملوك وقصص الأنبياء وتاريخ الطبري وكتابات الأصمعي والواقدي وأبو حنيفة الدينوري وسواهم ، أو التي سمعوها عن طريق شيوخهم الثقاة ، وأعلى درجات الثقة والتثبت والتحقيق انهم لم يكونوا يكتبون شيئاً بدون سند مشاهدة أو قراءة كتب أو السماع عن الشيوخ وكانوا يعدلون ويجرحون الرواة ويميزون بين الثقة وغير الثقة .

ولم يكن صاحب كتاب حبيب السير بهذه الدرجة من التحقيق والتدقيق والتتبع في القسم الأول من كتابه واكتفى بنقل واعتماد الكتابات المنتظمة والمرتبة والتي أوردها كتاب روضة الصفا قبله ، وكان في منقولاته بمنتهى الأمانة والدقة إلى حد أن قُرّاء هذا الكتاب ليسوا بحاجة إلى قراءة روضة الصفا ، وإذا قرؤوا روضة الصفا فإنهم لن يحسوا بأية متعة أو لذة من مطالعة هذا الكتاب .

٤- فوائد قراءة ومعرفة قصص الأنبياء والملوك القدماء:

والحال هذه فإن لقراءة ومعرفة تلك المواضيع للذين لهم اهتمام بالفنون التاريخية والأدبية ويشتغلون في تتبع أحوال وأفكار الأمم والأقوام فوائد ونتائج كبيرة لا يمكن التغاضي عنها .

وعلى فرض أن الاطلاع على تلك القصص والحكايات لأجل التاريخ نفسه ؛ فإنها قد لا تكون مفيدة من حيث صحة وسقم المسائل والوقائع التاريخية ، ولكن من المسلم به أنها مفيدة ونافعة لمعرفة تاريخ تطور الأفكار وتفسير الرموز والأسرار للروايات والقصص القومية والدينية بل إن الاطلاع عليها واجب ولازم من بعض النواحي ولو لأجل التاريخ نفسه .

كما ان كثيراً من الأمثال وقصص الأنبياء السالفين والذين ورد ذكرهم في القرآن المجيد وتفسير آياته تحتاج إلى معرفة تلك الروايات .

٥- نفوذ قصص الأنبياء والحكايات القديمة في الأدب:

ومن جهة أخرى فإن جميع الحكايات والقصص الوطنية والدينية القديمة نقرؤها بنفس الشكل الذي وردت فيه في كتابات حبيب السير وروضة الصفا ونظائرها مثل قصة خلق آدم وحواء وإخراجهم من الجنة بسبب خطيئة أكلهم من الشجرة التي نُهوا عنها ، وقصة هابيل وقابيل وهاروت وماروت ، ودعوة نوح التي امتدت عدة مئات من السنين ، وصيرورة النار روضة على حضرة الخليل ، ومشقة ترويض أيوب لنفسه ، وحكاية عمل شعيب بالرعي ، وواقعة موسى مع فرعون والخضر وهارون ، وقصة يحيى وعيسى وأمثالها ، وكذلك أساطير العنقاء وزال ، وقتال رستم وإسفنديار ونظائرها ، كل هذهِ القصص قد نفذت إلى اللغة و الأدب الفارسي وتكررت لقرون عدة ، ولكن الألفاظ والاصطلاحات والكنايات والأمثال السائرة الأصلية قد احتفظت بمحليتها .

وبعبارة أخرى فإن القصة أو الحكاية إذا كانت في الأصل جزءاً من الأساطير والخرافات ، فإنها من الجانب الأدبي بحكم الأصول والمبادئ المسَّلمة ؛ إلى حد أن إدراك معاني ولطائف الأشعار والمنشآت والمحاورات الرائجة باللغة الفارسية لن تكون ميسرة بأي شكل من الأشكال بدون معرفة تلك القصص والروايات ، ولهذا فإن حاجة أصحاب اللسان الفارسي إلى قراءة ومعرفة هذا القسم من كتاب حبيب السير وأمثاله حاجة لازمة ومسلم بها أيضاً .

ويعد قسم من الناس قصيري النظر ان قراءة وكتابة مثل هذه الروايات تضييع للعمر ، وبعض آخر على عكسه يتوهمون أن الشك في صحة هذه الأحداث يوجب إضعاف العقائد الدينية و اهتزاز أركان الدين .

وبرأينا فإن كلا المجموعتين قد وقعوا في خطأ فادح فبطلان رأي المجموعة الأولى مفهوم مما قدمنا لهم ، ونقول للمجموعة الثانية:

٦- كيفية ورود قصص الأنبياء في القرآن المجيد:

إن ورود قصص الأنبياء وأصحاب الكهف و أمثالها في القرآن المجيد بنظر رواة التاريخ لم يأت بها الرسول (ص) من عنده ابتداءً حتى يكون هناك شك في صحتها وتكون منافية لصدق الدعوة والعياذ بالله ، بل إن المقصود من هذه القصص التي كانت متداولة ومشهورة بين أهل ذلك الزمان وخصوصاً أهل الجزيرة العربية استلهام النتائج الأخلاقية من أجل هداية الناس .

وهذا العمل على قول علماء المنطق من جملة المحسنات الخطابية والاستدلالات الجدلية التي يستمسك بها بالمسائل المقبولة والمسَّلمة والأمور المشهورة ، وكانوا يتقبلونها مؤقتاً حتى يُلزموا طرف الدعوى بقبول دعواهم ، وأحياناً كانت هذه المسائل في الوقائع صادقةً أم كاذبة .

وعلى سبيل المثال قصة يوسف التي جاءت في التوراة والقرآن المجيد ، فإننا عندما نقرؤها ونقارن بينهما يكون معلوماً لدينا لماذا اعتبرها القرآن المجيد بعنوان أحسن القصص وكم زيَّن و أدَّب كل قسم منها باللطائف الأدبية والأخلاقية.

ومن الواضح أكثر القول أن نبي الإسلام صلوات الله عليه لم ينهض بدعوته كونه مؤرخاً مثلما انه لم يُبعث بدعوى كونه منجماً ومهندساً وكيميائياً وأشباه ذلك ، وليس القرآن المجيد كتاب تاريخ وهيئة ونجوم وكيمياء وفيزياء لتكون الدعوة الإلهية السماوية في كل عصر وزمان جامدة وبعيدة عن متناول تطورات الأفكار الإنسانية التي تكون فنونها المكتسبة عرضة للتبديل والتغيير في الأفكار في كل لحظة . ويجب أن لا نخلط ولا نتوهم أنه إذا لم تكن هناك مثلاً إشارة إلى مساحة الكرة الأرضية وحساب الخسوف والكسوف وصناعة الطائرة والسيارة فإنه سيكون هناك نقص في الدعوة الإسلامية . إن المنظور والهدف الرئيسي للإسلام هو التربية الأخلاقية وإصلاح النفوس وخلاص البشر من التيه والضلالة وقد بُعث بتأييد إلهي على هذا الأساس ، وكل ما احتواه القرآن المجيد مستند على هذه الدعوة ، وإذا ما وردت ضمن الآيات إشارات إلى الأسس والأصول العلمية الإنسانية فهي لتأكيد نفس الهدف وتعد من النتائج والفوائد الفرعية التابعة .

وبالجملة فإن الإسلام لم يكن يسعى في بيان صدق وكذب هذه القصص والحكايات بل إنه كان يستخلص النتائج من نفس القضايا التي كانت متداولة على ألسنة الناس من أجل دعوته الأخلاقية ، لذا فقد استنتج وعمل بهدفه الأصلي بشكل كامل .

إن مثنوى مولوى الذي نهل نصيباً من فيض ينبوع القرآن المجيد واقتبس من موقد نوره وشعلة هدايته نفسها ووهب نتيجة لأخذه من قصص الأنبياء والقصص القديمة التحقيق والعرفان .

ونكرر أن كتابات القسم الأول من حبيب السير (من ابتداء الخلق حتى ظهور الإسلام) ؛ ولو أنها من جملة الأساطير والقصص لكن قراءتها ومعرفتها مفيدة بل لازمة .

٧- صياغة الاسلوب الجديد في فن التاريخ مع الإشارة إلى تبدل الأفكار:

إننا نعيش الآن حقاً في عصر قد خرج فيه فن التاريخ من أسلوب النقل والرواية المحضة ، واتخذ لنفسه مساراً مزدوجاً مع الاستدلال النظري والعقلي ، وقد فندت التحقيقات والاكتشافات التي ولدت في القرون الأخيرة أساس العصور القديمة ، وفرشت بساطاً جديداً ليس له شبيه ولا تطابق مع مؤلفات القدماء ؛ فاليوم تعد جميع هذه الكتابات المتعلقة بالحكام والسلاطين في العصور السابقة للإسلام بمثابة خرافات وأساطير الأولين ، ومع ذلك فإننا نعتقد أن لا مناص من معرفة وقراءة هذه الأساطير .

وإذا أردنا الحقيقة فإن الإنسان النائم يصحو على قصة مشوقة ثم يذهب للنوم وبعدها بقليل يستيقظ على قصة جديدة فتحل قصة محل قصة وحكاية جديدة محل حكاية قديمة وشئنا أم أبينا تجبرنا على النوم .

٨- القسم الثاني من حبيب السير من ظهور الإسلام حتى أوائل العهد الصفوي:

ولج المؤلف في القسم الثاني إلى المسائل والقضايا التاريخية التي تمثل كل ما اختزنه نتيجة إطلاعه واستقصائه ، ودوَّن ما يتعلق بتواريخ جميع سلاسل وطبقات السلاطين والحكام المعروفين بعد الإسلام وحتى زمانه ، وفي هذا القسم فإنه التقط على حد قوله من بحار مؤلفات الفضلاء واتخذ من المؤلفات السابقة له وخاصة روضة الصفا أساساً وأضاف إلى محتويات ذلك الكتاب اطلاعاته الأحدث المتعلقة بعصره وأدرجها في كتابه حبيب السير.

٩- خصائص حبيب السير وتميزه عن روضة الصفا وكتب التاريخ الأخرى:

وللتعرف أكثر على مزايا كتاب حبيب السير وما زاد فيه عن كتاب روضة الصفا نقول:

إن كتاب روضة الصفا طبعة بومباي سبعة مجلدات (١٢٦٣ هجرية = ١٨٤٧ ميلادي) تأليف مير محمد بن خاوند شاه المعروف بمير خواند ، وقد أتم المجلد السادس منه في تاريخ الأمير تيمور وخلفه وحتى وفاة السلطان أبو سعيد التيموري في الثاني من رجب سنة ٨٧٣هـ ، وقد خُتم بأسماء أحد عشر فرداً من أبنائه .

وقد أجَّل شرح أحوال ووقائع أبناء أبو سعيد إلى المجلد السابع الذي لا يوجد له أثر ، وإذا ما كان قد كتب شيئاً في هذا الجزء والأقسام الأخرى من قبيل تاريخ أيام ممدوحي ومعلمي السلطان حسين بايقرا ومير علي شيرنوائي ربما لم يتم تبييض مسودته أو فُقِدَ أصلاً أو ان مسوداته وقعت بيد سبطه خواند مير صاحب حبيب السير ، وقد استفاد منها في تأليف كتابه ، ولكننا نعتقد أنه لم يكتب شيئاً أصلاً بعد سنة ٨٧٣هـ ، وسنأتي بالدليل لاحقاً .

ربما يكون القول الفصل في ذلك أن مدونات واطلاعات مير خواند لم تكن قد تجاوزت شهر ذي القعدة سنة ٩٠٣هـ وهي نفس تاريخ وفاته . وبعد ذلك فإضافة إلى ما صنفه قلم وذهن واهتمام خواند مير صاحب حبيب السير والتي تعد من مختصات كتابه ولا سابقة لها في أصل روضة الصفا ولا في الكتب السابقة ولا اللاحقة له ، فإن كل من كتب شيئاً في هذا المضمار كان مصدره كتاب حبيب السير نفسه .

١٠-٥٧ سنة من التاريخ اختص بها حبيب السير وعاصرها بعد تاريخ الانتهاء من روضة الصفا:

ويتعلق هذا القسم بزمان خواند مير نفسه ، ولهذا السبب يمكن عده الجزء الأحدث والأكثر اعتباراً من بين أجزاء الكتاب ، فمدته التاريخية تُجاوز النصف قرن أي بحدود ٥٧ سنة ، من شهر رجب سنة ٨٧٣هـ سنة وفاة السلطان ابو سعيد كَوركان وهي تاريخ نهاية المجلد السادس من روضة الصفا حتى شهر ربيع الأول من سنة ٩٣٠هـ أواخر عهد الشاه إسماعيل الصفوي وهو تاريخ الانتهاء من حبيب السير ، مثلما أن القسم المعاصر لزمانه من روضة الصفا وهو قسم من المجلد السادس والمتعلق بعهد التيموريين يعد أهم أقسام الكتاب وأكثرها اعتباراً .

١١-التحقيق في تاريخ تأليف روضة الصفا والقسم الخاص بحبيب السير:

إن الدليل على ان قسماً من حبيب السير مختصاً بمدة ٥٧ سنة من ٨٧٣-٩٣٠هـ هو أن تاريخ الانتهاء من تأليف روضة الصفا بالشكل الذي صرح به المؤلف صدفةً في ثنايا مواضيع الكتاب سنة ٨٩٩ هـ .

يقول في حوادث سنة ٨١٣هـ في أيام مملكة شاهرخ ابن الأمير تيمور: في هذه السنة تم الانتهاء من بناء المدرسة والخانقاه الذي أُقترح في شمال قلعة اختيار الدين "والآن وقد انتهى التاريخ الهجري بسنة ٨٩٩ فقد غدت بغاية الإعمار: ص٢٨١ المجلد السادس طبعة بومباي ١٢٦٣هـ " ، وفي مقابل هذا في المجلد الخامس ضمن الكلام عن مملكته يقول كتاي قاآن: "الآن بحدود سنة ٩٠٠ هجرية" .

ومن المعلوم أنه في سنة ٨٩٩هـ ، وهي السنة التي سبقت أواخر أيامه بثلاث أو أربع سنوات فقد انشغل بتأليف المجلد الخامس والسادس وكتب متابعاً الأحداث حتى سنة ٨٧٣هـ .

ويُعرف من كتاباته في خاتمة المجلد السادس أنه كان مريضاً جداً ويئن من شدة آلام الكلية وضعف الكبد ، إلى درجة أنه قد حرر تاريخ وقائع جلوس شاهرخ والموافق سنة ٨٠٧هـ بعد موت أبيه تيمور كَوركان وحتى سنة وفاة السلطان أبو سعيد التيموري أي سنة ٨٧٣هـ في حال من التعب والعجز بحيث أنه لم يكن قادراً على الجلوس والنهوض وكتابة صفحة واحدة . في الوقت نفسه فإننا نرى أن صاحب حبيب السير الذي كان أقرب الناس إليه يكتب عن سيرته قائلاً: انه قد مال في أواخر أيام حياته إلى الانزواء والانقطاع عن الناس وعدم الاختلاط بهم وقضى مدة عام في كَازركاه خارج مدينة هراة ، وصرف أكثر أوقاته في العبادة وطلب السعادة الأُخروية ، وفي شهر رمضان سنة ٩٠٢هـ عاد من مقام اعتكافه إلى المدينة بسبب ابتلائه بمرض سوء القنية** ورقد عاجزاً وظل هكذا طيلة مدة مرضه حتى وافته المنية في الثاني من ذي القعدة سنة ٩٠٣هـ .

ومن جملة هذه القرائن يمكننا الاستفادة أن صاحب روضة الصفا قد أمضى السنوات الثلاث أو الأربع بعد سنة ٨٩٩ بتأليف المجلدين الخامس والسادس من كتابه وحتى وفاته في ذي القعدة سنة ٩٠٣هـ بين المرض والنقاهة ، وقضَّى سنة واحدة من هذه المدة في الاعتكاف والعبادة ، ولم يتيسر له خلالها التأليف والتحرير ، وبالنتيجة فقد ختم مجلده السادس من روضة الصفا بعشرة أو عشرين سطراً من مقدمة المجلد السابع .

وبهذا الدليل يمكن أن نجزم أن مؤلف روضة الصفا لم يكتب شيئاً أصلاً يتعلق بوقائع ما بعد سنة ٨٧٣ ، وأي شيء كُتب بعد هذا التاريخ متعلق بصاحب حبيب السير ومن مزايا وخصائص كتابه .

١٢- التحقيق حول المجلد السابع من روضة الصفا:

أما المجلد السابع من روضة الصفا والذي جاء استمراراً للمجلد السادس والذي طبع في بومباي سنة ١٢٦٣هـ والموافقة لسنة ١٨٤٧م باسم محمد بن خاوند شاه مير خواند ، والذي يشتمل على تاريخ أيام السلطان حسين بايقرا من ولادته وحتى وفاته وسيرة أعقابه حتى شهر ذي القعدة سنة ٩٢٩ أي بحدود ٢٦ سنة بعد وفاة مير خواند مؤلف روضة الصفا . إن المقدمة القصيرة للكتاب والتي هي بحدود عشرين سطراً مطبوعاً هي فقط وعلى ما يبدو من تأليف مير خواند نفسه ، أما الباقي فإنه عيناً وحرفاً بحرف قد صُب في المجلد السابع من روضة الصفا من كتاب خواند مير (حبيب السير) وبدون أدنى نقص .

والعجيب انه في المجلد نفسه ص ١٢٤ قد أُدرج شرح حال مير خواند مؤلف روضة الصفا مع ذكر تاريخ وفاته في الثاني من ذي القعدة سنة ٩٠٣هـ كما نقلنا في السطور السابقة ، وقد ذكر في الخاتمة أيضاً أشعاراً فيها إشارة إلى الخواجة حبيب الله ممدوح صاحب حبيب السير :

جوهر اسمه له من الشرف نصيب عنـد الله مـثـل ذاتـه حبيـب

إن من مزايا وخصائص كتاب حبيب السير أنه يضم توثيقاً لتاريخ ما يقرب من ٥٧ سنة (٨٧٣ – ٩٣٠هـ) وهي الفترة التي عاصرها المؤلف أي من أواسط الجزء الثالث من المجلد الثالث إلى نهاية الجزء الرابع من نفس المجلد والتي تُختتم بها مجلدات الكتاب .

والواضح أن هذا القسم من الناحية التاريخية يعد معتبراً جداً وأكبر قدراً من الأقسام الأولى للكتاب و أكثرها حداثة وفائدة .

١٣- تذكرة رجال حبيب السير:

إن ما يميز كتاب حبيب السير عن روضة الصفا وبقية كتب التاريخ السابقة أنه كان يُفرد فصلاً خاصاً في نهاية كل عصر من العصور التاريخية في شرح حال الوزراء و أعيان الرجال و أشراف السادات والنقباء ومشايخ العلماء والفضلاء والشعراء وأهل القلم و أصحاب الفنون المعروفين في ذلك العصر ، ويُعد هذا الفصل من الفصول المميزة والمهمة والنافعة كثيراً في هذا الكتاب .

ولكن هذه الفصول ليست على ماء واحد ونسق واحد في جميع العصور وجميع أقسام الكتاب ؛ بل إننا كلما اقتربنا من آخر الكتاب فان نصيبها من الكم والنوع يزداد وتكون معلوماتها أكثر صواباً و إتقاناً ، ومن هنا يكون معلوماً أن إطلاع المؤلف على أسماء و أحوال الرجال للعصر التيموري وما بعده أي العهد الذي عاصره بنفسهِ أكثر من العصور السابقة .

١٤- أسلوب نثر وإنشاء حبيب السير:

نشأ صاحب حبيب السير علمياً وتربوياً في ظل جده لأُمه (مير خواند) مؤلف كتاب روضة الصفا ، ومن الناحية الأخلاقية والناحية العلمية والأدبية فقد أثنى عليه وعلى منشآته وأشاد ببلاغته وفصاحته .

وبما أنه قد اطمئن إلى صحة مروياته في روضة الصفا فقد اعتمدها وأُعجب باسلوب إنشائها وجعلها أساساً لمادته العلمية ، وقد اتبع في حبيب السير الأسلوب نفسه في التنظيم والترتيب والسبك والتأليف . ومن شدة عنايته وإعجابه بأقوال ومدونات أُستاذه فقد كان يستخدم التعبيرات نفسها ولو بتصرف بسيط ، أي انه كان ينقل الكلمات نفسها بتغيير وتبديل وإحلال كلمات بدل أُخرى أو بإيجاز وإطناب في العبارات ، وهذا العمل في رأينا نتاج كثرة الممارسة والاجتهاد ولا يمكن عده من باب الانتحال والسرقة .

إن أسلوب إنشاء حبيب السير هو السبك نفسه المعتاد والرائج في ذلك الزمان أي في القرنين التاسع والعاشر الهجريين حيث انتشرت روح الصنعة في الأدب ، وزُين الشعر والنثر الفارسي بصنائع البديع الظريفة .

ويمكن القول ان عصر التيموريين من وجهة النظر الشمولية العامة يعد عصر الصنائع الظريفة ؛ فنجد عين التكلف والتصنع الذي كان في أعمال الفنون من خط ورسم وتذهيب في اسلوب الشعراء والكتاب بدرجات متفاوتة ، ونجد ان اسلوب الصنعة والترسل الذي ولج إلى الأدب الفارسي في العصور السابقة وخاصةً في النثر مازال مقبولاً ورائجاً ومعتاداً ومدعاةً للإعجاب في هذا العصر. وقد امتد اسلوب الإنشاء ذاته إلى العصور التالية و انتقل من إيران إلى الهند بواسطة السلاطين التيموريين و زِيد عليه تكلفاً وتصنعاً .

إن من خصائص هذا الاسلوب إيراد الكلمات والجمل المترادفة و تزيين العبارات بالصنائع البديعية من قبيل السجع والجناس ومراعاة النظير والتشبيهات والمجازات و الاستعارات وإيراد الأمثال السائرة والآيات والأخبار والأشعار الفارسية والعربية والتي كثيراً ما يتغلب فيها اللفظ العربي على اللفظ الفارسي ، وخصوصاً فيما يتعلق بالمترادفات التي قد تكون أحياناً طويلة ، ويمكن عدها من قبيل الإطناب الممل والإطالة التي لا فائدة منها ، وهذا الاسلوب من خصائص منشآت أواخر العهد التيموري وما بعده في إيران ، وقد ازدادت في الهند على زمان بابر شاه إلى درجة أن بعض الكتاب كانوا يُكثرون من الإطالة والإطناب الذي يتجاوز الحد ، ولأداء المعنى في جملة قصيرة فإنهم كانوا يملؤون الصفحات بالحشو

والزيادات والتشبيهات والمجازات التي تخرج عن حدود البلاغة ، وللإنصاف فإنها تعتبر من عيوب ذلك النوع من الكتابة .

لقد كان للكُتاب القدامى إطلاع كافٍ ووافٍ على اللغة والأدب الفارسي والعربي ، وإذا لم يتم تحصيل هذا الأساس فلا يمكن أن تطلق عليهم كلمة منشيء أو مترسل أو كاتب ، وأي مؤلّف لا يحوي شيئاً من هذه الأُسس فلا يجوز عده ضمن المؤلفات الأدبية أصلاً .

ونجد اليوم بعضاً ممن يتعلمون لغتهم الأم ممن يعدون أنفسهم كتاباً فإنهم عندما يعجزون عن قراءة وفهم المؤلفات القديمة المنظومة والمنثورة فسرعان ما يشرعون بالطعن والسخرية من الأقدمين كونهم لم يقولوا ولم يكتبوا ما يناسب درجة فهمهم القاصر ، وإذا ما تقبلوا النصح فإنني أقول لهم: بدلاً من إبداء الاعتراضات التي لا محل لها عليهم أن يجتهدوا ويسعوا في طلب العلم ويرتقوا بمستوى معلوماتهم ليجدوا أن لذة إدراك لطائف كلام الأقدمين أفضل بدرجات من العيب عليهم والإساءة إليهم والله الموفق .

يمكن اعتبار نثر حبيب السير من المنشآت الناضجة جداً التي استخدم فيها اسلوب النثر المسجوع المعتاد في ذلك الزمان من أعمال الصنائع البديعية وإيراد المترادفات باعتدال ، وتعد بعض مواضيعه مثل المقدمة وتشبيب العناوين وذكر الأحداث المهمة وتراجم أحوال الرجال من نوع النثر المسجع المترسل ، وفي سواه من المواضع فقد تحرر من قيد التصنعات الإنشائية وأصبح أكثر سلاسة وانسياباً .

ونلحظ في القسم المتصنع والمترسل إضافة إلى السجع بعض الصنائع البديعية الأخرى أيضاً ولكنها لا تخرج عن حد الاعتدال ، ولا يمكن عدها مشكلة ومن النثر المغلق ولا تعد مبالغة في إيراد الصنائع البديعية والإطالة والإطناب .

وهكذا فإذا كان مستوى معلومات دارسي اليوم ليس كافياً لفهم حبيب السير ، وأساس دراستهم لا يكفي لإدراك المعاني واللطائف الأدبية في هذا الكتاب ، فهذا ليس ذنب المؤلف بقدر ما هو قصور في نضجنا . ومن جملة خصائص الإنشاء وتركيب الجملة في كتاب حبيب السير إيراده للأفعال الوصفية التي كانت معتادة ورائجة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين والتي استمرت إلى العصر الحاضر.

١٥. الطبعات السابقة لحبيب السير ومزايا هذهِ الطبعة:

طبع هذا الكتاب سابقاً طبعتين حجريتين:

١. طبعة بومباي سنة ١٢٦٣هـ الموافقة لسنة ١٨٤٧م ، والتي تعد أول طبعة كاملة لحبيب السير ، وفي نفس التاريخ أيضاً فقد طبع كتاب روضة الصفا في بومباي بمجلداته السبعة .

٢. طبعة طهران والتي جاءت سنة ١٢٧١هـ أي بعد ثماني سنوات ، ومرت مدة تزيد على المائة سنة لم يتم فيها الإقدام على إعادة طبع الكتاب حتى وفق الله السيد محمد علي صاحب مكتبة الخيام فشد أزره وأعاد طباعة جميع المجلدات طبقاً للطبعة الأولى في مطبعة الحيدري وتجشم مع منتسبي المطبعة مهمة المقابلة والتصحيح ، وبهذا فقد قدم خدمة جليلة للثقافة الإيرانية و أخرج من روضة الفن فاكهة حلوة وتحفة لعشاق الأدب في عصرنا الحاضر .

وفي زماننا هذا وللأسف فقد اتجهت العلوم والآداب نحو الضعف والضعة وحلت الكتابات الجوفاء والحمقاء وغير الناضجة محل المؤلفات القديمة الثمينة والقيمة وقلَّ طبع

ونشر الكتب الأصيلة والجادة ، والخوف لا سمح الله أن طبائع الناس ورغباتهم قد انحرفت عن مطالعة الكتب المفيدة إلى الهزليات والأساطير .

إن هذا العمل الذي أقدم عليه السيد محمد علي خيام جديرٌ بالمديح والثناء أدام الله تعالى توفيقاته العالية .

ومن مزايا هذهِ الطبعة وجود فهرس جامع وكامل للمواضيع وأسماء الرجال والأماكن وهو فهرس مفيد ونافع . فإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار مقدار الأوقات التي يبذلها القارئ في البحث عن موضوع معين في أحد الكتب فإننا ندرك أهمية هذا النوع من الفهارس والخدمة التي قام بها المفهرسون لجميع أهل العلم والأدب ، وعليه يتضح جلياً أن الفهرس الجامع لكل كتاب هو بمثابة جهد سنين من العمر يقدمها الكتاب لقرائه *** .

---

* العلامة الدكتور جلال الدين همائي (١٩٠٠-١٩٨٠م) كاتب ومؤلف ومحقق ومؤرخ وشاعر وأُستاذ جامعي ؛ ألَّف في اللغة والأدب والتاريخ وحقق الكثير من الكتب ، وهو شيخ من شيوخ التعليم والكتابة والتأليف والتحقيق والتوثيق ، ومن مؤلفاته: غزالى نامه ، وتحقيق نصيحة الملوك للغزالي، ومولوى نامه ، وتحقيق التفهيم للبيروني ، وديوان أشعاره الذي جاوز الخمسة عشر ألف بيت . (المترجم)

** سوء القنية: فساد في االمزاج يبدأ من الكبد ثم غالباً ما يعم البدن . (المترجم)

*** تاريخ حبيب السير فى اخبار افراد بشر ، غياث الدين بن همام الدين الحسيني (خواند امير) ، مقدمه جلال الدين همائى ، انتشارات كتابخانه خيام ، چاپخانه حيدرى ، طهران ١٣٣٣هـ ش ، ج١: ٤- ٤٣ .